مسجد الشافعي يضم جدة التاريخية لقائمة التراث

إعداد – عبدالمعطي السلمي
تصوير – عبدالعزيز الراشد

تشهد محافظة جدة هذه الأيام حركة دؤوبة لإعادة وترميم بعض المساجد التاريخية فيها انطلاقا من قول الله تعالى " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ" ثم تنفيذا لتوجيهات خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود – حفظه الله – الذي وجه بترميم أول مسجدين تاريخيين في جدة التاريخية.

وأعلن صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار أثناء زيارته لجدة التاريخية قبل عامين، أن خادم الحرمين الشريفين – أيده الله – تبنى ترميم أول مسجدين تاريخيين في جدة التاريخية هما مسجد الشافعي ومسجد المعمار اللذين بدئ الترميم فيهما فعليا مؤخرا.

والزائر للمنطقة التاريخية لمدينة جدة حاليًا تستوقفه أعمال الترميم التي يشهدها " مسجد الشافعي " في حارة المظلوم إحدى حارات جدة القديمة ، ويسمى لدى أهالي جدة " المسجد العتيق " بجانب سوق الصاغة والفضيات القديم وصانعي النحاس، وإلى الشرق منه يوجد سوق النسيج والملابس المعروفة بسوق البدو، ليتحول المكان إلى ورشة عمل آلية وبشرية لترميمه.

ومن المتوقع أن تنتهي أعمال المسجد في نهاية شهر أغسطس من العام الجاري، بعد أن مر بمراحل إعادة بناء على مدى ثمانية قرون مضت، تبعها ترميمات على مر العصور، كان آخرها ما تم في عهد الدولة السعودية الثالثة.

وعلى الرغم ما تضمه منطقة البلد التاريخية في جدة من آثار ومبان ضربت جذورها في عمق التاريخ القديم، إلا أن مسجد الشافعي عد من أقدمها.

ويجري الآن العمل في مشروع ترميم المسجد تحت إشراف فريق عمل فني وخبراء عالميين، لأن عمل الترميم جذب فريق مختص في التراث العمراني بالهيئة السعودية للمهندسين لزيارة المسجد، والاطلاع على أعمال الترميم بمرافقة مدير فرع الهيئة العامة للسياحة والآثار بجدة محمد العمري، ورئيس المجلس البلدي بجدة الدكتور عبدالملك الجنيدي يرافقهم المشرف العام على أعمال الترميم الدكتور صالح لمعي مصطفى الذي ألقى محاضرة علمية بعد نهاية الجولة تناولت الجوانب الفنية في أعمال الترميم .

وعد الدكتور لمعي عمارة مسجد الشافعي من البناء الفريد من نوعه، حيث يأخذ مربع الأضلاع ووسطه مكشوف للقيام بمهام التهوية، مبينا أن المتجول داخل أروقة المسجد يشاهد النقوش والكتابات على الجدران وتفسيرها.

وتنقل الدكتور مصطفى بين العديد من المحاور الفنية المتخصصة في مجال ترميم التراث العمراني وتأهيله من خلال العرض المرئي الذي قدمه للحضور الذي شمل رسومات وبيانات وصور وإحصائيات وتحاليل، كما شرح العديد من المصاعب والمعاناة التي واجهتهم أثناء الدراسة المسحية التي كان آخرها اكتشاف وجود مادة الرصاص في قاعدة الأعمدة.

ويعقد أهالي جدة آمالهم وحلمهم الكبير على نجاح مشروع ترميم مسجد الشافعي ، حيث يعد أول مشروع لترميم مبنى تراثي مصنف على الطريقة المعتمدة العلمية لدى اليونسكو، وسيتم الاستفادة من تلك التجربة عند ترميم المباني التراثية الأخرى في المنطقة التاريخية في جدة. ويأخذ مسجد الشافعي شكل المستطيل في ظاهره، وينقسم إلى قسمين من الجهتين الغربية والشرقية، الأول منها الجزء الغربي، ممتدًا على هيئة صحن مكشوف مربع الشكل وسط دكة ترتكز على أربعة أعمدة، والثاني هو الجزء الشرقي وهو إيوان القبلة ويحتوي على صفين من البوائك، تعلوها عقود مدببة تقسم الإيوان إلى ثلاثة إيوانان موازية لحائط القبلة ، وتقوم عقود البوائك على أعمدة بعضها رخامي، وتنتهي بمقرنصات من ثلاثة صفوف، وبعضها الآخر مبني من الحجر. ومعظم تلك الأعمدة تعود إلى العصر العثماني ، بينما يتصدر حائط القبلة محراب مجوف كثير العمق زخرفت عقوده ، وكذلك خواصر عقده بكثير من الزخارف الزيتية متعددة الألوان، وكتابات قرآنية كتبت بالخط الثلث البديع على أرضية نباتية.

ويوجد، وفي خواصر العقد دائرتان كتب في إحداهما (الله) وكتب في الأخرى (محمد)، وبجوار تجويف المحراب مباشرة يقع منبر المسجد الذي صنع من الخشب المدهون ، ويرجع تاريخ هذا المنبر إلى عام ٩٤٠هـ.

وللجامع العتيق أربعة أبواب، أهمها الذي يقع في الضلع الغربي المواجه لحائط القبلة، وهو عبارة عن فتحة مستطيلة قاعدتها منخفضة عن الأرضية التي كانت ترتفع على مر العصور، ويعلو فتحة الباب عقد مستدير ضحل يقفل عليها الباب الخشبي المكون من ضلفتين بينهما (نف) ويعني العمود الذي يفصل بين ضلفة الباب، وبكل منهما (خوخة) وهي الفسحة التي تتوسط الباب الكبير في الدور أو في أسوار المدن لدخول المصلين وخروجهم.

أما الجانب الجمالي للباب الخشبي التاريخي فيتمثل في زخارف محفورة بفن راق على هيئةٍ زخارف نباتية مرسومة بأسلوب يقترب كثيراً من طبيعتها، وهو الطراز الفني الذي كان سائدا في المدرسة المغولية الهندية في القرن العاشر الهجري.

ويعلو سمط الباب الرئيس لوحة تذكارية نقش عليها اسم المسجد في أربعة سطور كتبت بخط ثلث جميل ملون، وعلى الركن الشمالي الشرقي تقوم المئذنة المستديرة، وهي من حجر منحوت وتتكون من ثلاثة طوابق مثمنة الشكل، وتنتهي بطاقية مستديرة يعلوها الهلال ويفصل بين كل طابق وآخر شرفة محاطة بسياج خشبي ترتكز على خمسة صفوف مدرجة من الدلايات بشكل هندسي جميل.

وفتح في كل طابق من طوابق المئذنة في ضلعين من أضلاع المثمن نافذة (قنديلية)، وفي الضلع الثالث يوجد باب صغير معقود كان مخصصا لخروج المؤذن إلى الشرفة المحاطة بالسياج الخشبي للمناداة إلى الصلاة .

وتولي الهيئة العامة للسياحة والآثار اهتمامها بمشروع ترميم مسجد الشافعي ليتكامل مع مشاريع التأهيل الجاري تنفيذها في جدة التاريخية، خصوصا مع استكمال ملف ترشيحها لتسجيلها في قائمة التراث العالمي التابعة لمنظمة اليونسكو، إضافة إلى ذلك تولي الهيئة المساجد العتيقة في المملكة اهتمامًا كبيرًا، وتعمل على المحافظة عليها، وتتعاون مع شركائها في تأهيلها وترميمها، ووقعت مذكرة تفاهم مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، للمحافظة على مباني المساجد العتيقة ومباني الأوقاف التراثية.

(دحضة) و(القابل) أرض الجمال والتاريخ التليد في نجران

نجران – البلاد

امتدادا لحضارة الإنسان الضاربة في أعماق التاريخ النجراني، لا زالت قريتي "دحضة" شمالاً و"القابل" جنوباً، أدلة بارزة تحمل رموز المراحل التي عبرها الإنسان منذ العهود الحجرية، وحتى عهد بيت الطين النجراني المعروف ما قبل ٥٠ سنة، لتشكل القريتين لوحة جمالية وهي متقابلتان على ضفتي وادي نجران الشهير.

وتشتهر قرية "دحضة" أو كما يسميها الأهالي "شعب دحضة" بمجاميع النخل والبيوت العتيقة المسماة بـ "الدرب النجراني"، وروابي الزراعة التي تمتد على ضفاف وادي نجران مستمدة المياة من مخزون الوادي العتيق، ومن سيول "العَجْمَة" و"شعب جبير" و"فريخ" التي تصب من أعالي جبال "دحضة" التي تميزت بالعيون و"الغدران" بسبب هذه الوفرة المائية، مثل "غدير الوَلَع"، و"غدير السبعة"، وغيرها.

وعُرفت "دحضة" لدى الباحثين والمنقبين كمكان قطنه الإنسان منذ القدم، مستدلين عبر دراساتهم بالأدوات الحجرية العائدة لما قبل التاريخ "العصر الحجري" أي قبل ما يقارب مليون ومائتين سنة تقريباً، حيث وجدوا في "شعب دحضة" أدوات القواطع الحجرية الكبيرة الحجم، والمكاشط والشفرات والمطارق والأدوات ذوات الوجهين البدائية.

وكانت "دحضة" مركزاً اقتصادياً هاماً قبل ٨٠ عاماً، حيث كانت تضم "سوق الأحد" الذي يعتبر من أهم الأسواق في منطقة نجران قديماً، لما يحويه من رواج لكافة البضائع القادمة من بلاد اليمن، أو تلك التي تتم صناعتها داخل المنطقة كالملابس والأدوات الجلدية، أو التي تُنتج عبر الثروة الحيوانية أو الزراعية.

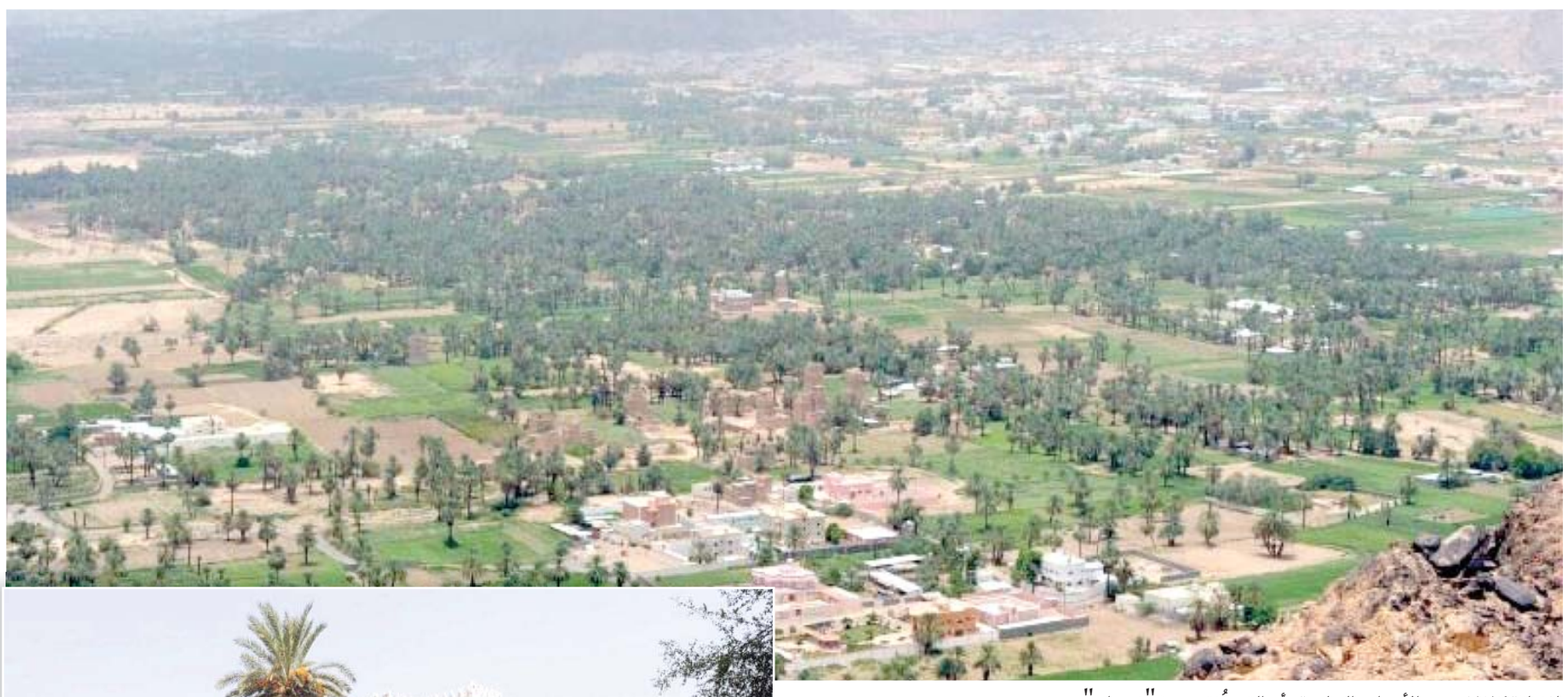

ويقابل قرية "دحضة" جنوباً بعد مجرى وادي نجران، قرية "القابل"، لتواصل معها لوحة الخضرة والتاريخ التليد، حيث تضم في رحابها موقع الأخدود الأثري الأشهر في منطقة جنوب الجزيرة العربية، والعديد من المواقع التي تضم نقوشاً ورسوماً ودلالات تاريخية هامة كُتبت بالمسند، حيث يعتبر موقع الأخدود والمنطقة المحيطة به هو مدينة نجران القديمة التي كانت تُسمى "رقمت"، فـ"رقمات"، فـ"نجرن"، فـ"نجران".

واشتهرت "القابل" بالإنتاج الزراعي على مستوى البر والذرة، وإنتاج التمور الفاخرة منذ القدم، كما ما زالت حتى يومنا هذا تحوي الكثير من البيوت الطينية "الدروب" مجانبة للمنازل الحديثة والمساحات الزراعية الخلابة.

ومثل قرية "دحضة" كانت قرية "القابل" تحمل ثقلاً اقتصادياً مقابلاً في جهة المدينة في الضفة الأخرى من الوادي، حيث كانت تضم سوق "الخميس" الذي يتبادل فيه الناس بيع وشراء السلع كل خميس من أسابيع العام.